بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان بالكتب

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد:

فهذه مباحث فيها بيان الإيمان بالكتب وهو أحد أركان الإيمان، تشتمل على بيان معناه وأحكامه وآدابه وتفصيل بعض مفرداته.

وقد شرعت مجلة (التوحيد) الصادرة عن جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر في نشر هذه المباحث ابتداءً من العدد رقم (٤٤٥) لشهر المحرم ١٤٣٠هـ في السنة الثامنة والثلاثون للمجلة .

والله الموفق للصواب لا شريك له.

أ.د. محمد بن عبدالرحمن أبوسيف الجهني
أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

المراد بالكتب:

الكتب: جمع كتاب، والكتاب لفظ عربي مشتق من الفعل "كتب"، والكاف والتاء والباء أصل في لغة العرب لمعنى ضمِّ الشيء بعضه إلى بعض، تقول العرب: تكتّب الرجل، إذا حزم ثيابه عليه وضم بعضها إلى بعض، وتسمى العرب الخِياطة كتابة لأن الثوب يضم بعضه إلى بعض بها، ومنه "الكتيبة" سميت بذلك لأنها تضم جماعة من الجنود[1].

ومنه سمي الكتاب كتاباً، لأن مباحثه وأبوابه جمعت وضم بعضها إلى بعض فيه بالكتابة.

فالمقصود بالكتب في قول الشرع: "الإيمان بالكتب" على هذا الأصل اللغوي هو: ما جمع وضم في كتاب مما أنزله الله على أنبيائه، وظاهر حديث أبي ذر الذي فيه سؤاله النبي صلى الله عليه وسلم: "كم كتاباً أنزل الله؟" قال صلى الله عليه وسلم: "**أنزل مائة وأربع كتب**" إن صح الحديث[2] أن هذا هو المراد.

ولكن قد يكون المراد بالكتب جميع ما أنزل الله من وحيه على رسله سواء جمع في كتاب أم لا، ويكون التعبير بالكتب من باب ذكر الخاص وإرادة العام، ومن التعبير بالجزء عن الكل، لأن الذي في أصول الإيمان وجوب الإيمان بجميع ما أنزل الله على الأنبياء، ومعلوم أنه ليس كل نبي معه كتاب، قال الله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ

---

[1] انظر معجم مقاييس اللغة ١٥٨/٥، ولسان العرب ٦٩٨/١.

[2] وهو لم يصح، وسيأتي الكلام عليه تحت عنوان "عدد كتب الله".

لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[1] فجعل الإيمان إيماناً بجميع ما أنزل إلى المؤمنين على الأنبياء وبجميع ما أوتوه، فهذا هو أصل الإيمان في هذا الباب، فيكون ذكر الكتب على الوجه الذي ذكرنا، وقد قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[2] فذكر "الكتاب" وهو اسم جنس لكتب الله، وذكر معه "ما أرسلنا به رسلنا" أي من الوحي وسائر الآيات.

المراد بالإيمان بالكتب:

معلوم من دلالات نصوص الوحيين، وهو أحد أصول أهل السنة ، أن الإيمان قول القلب واللسان والجوارح. والإيمان بالكتب يجري على هذه الثلاث، فهو إيمان القلب واللسان والجوارح بالكتب،

أما صورة إيمان القلب بالكتب فهي:

اعتقاده أنها منزلة من عند الله، وهي كلامه ووحيه لأنبيائه، منه بدأت، ليست من إنشاء الرسل.

واعتقاد أنها تضمنت مراد الله من خلقه اعتقاداً وشريعةً وسلوكاً.

واعتقاد وجوب العمل بمقتضاها وتعبد الله به.

وأما صورة إيمان اللسان فهي:

الإقرار بذلك الذي اعتقده القلب، والإخبار عنه، والشهادة به.

وأما صورة إيمان الجوارح فهي:

امتثالها أوامر الله في كتبه، وكفها عن نواهيها، وتأدبها بآدابها.

---

[1] البقرة ١٣٦.

[2] غافر ٧٠.

تسميات الكتب:

أطلق الله على كتبه أسماءً متنوعة الألفاظ، كل لفظ يدل على معنى جليل هو من صفاتها، وهذا عرضٌ لذلك:

- أما تسميتها بالكتب، فتقدم ذكر معناه، وروده كثير في كتاب الله، منه قوله سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾[1] .
- وسماها الله بـــ"الكتاب" وهو على الجنس، كما في قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[2] .
- وسمى كتبه "الزبر"، كما في قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾[3] أي ذكر القرآن في كتب الأنبياء السابقين[4]، و"الزبر" جمع زبور، وقد سماها الله "زبوراً" على الجنس في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ ﴾[5] أي في كتب الأنبياء بعد أم الكتاب[6].

وهو مشتق من الفعل "زبر"، وهو في اللغة لثلاثة أصول من المعاني[7] :

---

[1] البقرة ٢٨٥.

[2] البقرة ١٧٧.

[3] الشعراء ١٩٦

[4] انظر زاد المسير ١٤٤/٦.

[5] الأنبياء ١٠٥.

[6] انظر زاد المسير ٣٩٧/٥.

[7] انظر معجم مقاييس اللغة ٤٤/٣، والصحاح ٦٦٧/٢، وتفسير القرطبي ٢٩٦/٤.

١- بمعنى أحكم وأتقن، تقول: زبر الكاتب الكتاب إذا أتقنه وأحكمه. فيكون معنى تسمية كتب الله به على هذا الأصل: أنها محكمة الألفاظ والمعاني.

٢- بمعنى حبس وزجر، تقول: زبر الوالد ولده، أي: حبسه وزجره. فيكون معنى تسمية كتب الله به على هذا الأصل: أنها تحبس الناس عن معصية الله وتزجرهم عنها.

٣- بمعنى كتب، وبمعنى قرأ، فيكون معنى تمسية كتب الله به على هذا الأصل: أنها تكتب وتقرأ.

وهذه المعاني جميعها حق في كتب الله، فيحمل معنى تسميتها "زبراً" عليها جميعها مجتمعة.

- وسمى الله كتبه "صحفاً" كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾[1] وهو مشتق من الفعل: "صحف"، وهو في اللغة يدل على الانبساط، ومنه الصَّحفة وهي القصعة يبسط فيها الطعام للأكل، فيكون معنى تسمية كتب الله به على هذا: أنها تُبسط وتُنشر لقراءتها.

ووردت أسماءٌ أعلام على آحاد كتب الله خاصة بكل واحد منها سيأتي ذكرها عند التفصيل إن شاء الله.

حكم الإيمان بالكتب:

الإيمان بالكتب واجب، بل هو من آكد الواجبات، وقد وردت الأدلة في الشرع تقرر وجوبه من وجوه عديدة، منها:

[1] طه ١٣٣.

١- الإخبار عن كتب الله أنه أنزلها على رسله، وهذا الخبر واجب الإيمان به لأنه خبر الرب سبحانه والجحود به كفر، ومن أمثلة هذا الإخبار: قوله سبحانه: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[١] فأخبر أنه أنزل مع النبيين كتباً بالحق، ومنه قوله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[٢]، ونحو هذا كثير.

٢- الأمر المباشر بالإيمان بالكتب، ومنه قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾[٣] فأمر بالإيمان بكتب الأنبياء جميعاً، ومنه قوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[٤]، ونحو هذا كثير.

٣- إخباره سبحانه بأن الإيمان بالكتب من البر، قال سبحانه: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

---

[١] البقرة ٢١٣

[٢] الحديد ٢٥

[٣] النساء ١٣٦.

[٤] البقرة ١٣٦.

﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ... ﴾[1] والبر من الأسماء الجامعة لما يحبه الله ويرضاه.

٤- إخباره سبحانه أن النبي والمؤمنين يؤمنون بالكتب في معرض الثناء عليهم وتسجيل صفات الإيمان لهم التي بها يستحق العبد صفة الإيمان وحكمه، قال سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾[2] ، وقال سبحانه في صفات المتقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[3] ، وقال في مدح مريم عليها السلام بعد أن ضربها مثلاً للذين آمنوا: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾[4]، ونحو هذا.

٥- إخباره سبحانه بأن تكذيب المكذبين وكفرهم إنما كان لجحودهم بالكتب، فمن جحد بالكتب كفر وخرج من الملة، فظهر ملازمة وجوب الإيمان بالكتب للإيمان، قال سبحانه: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾[5] وقال سبحانه: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

[1] البقرة ١٧٧.

[2] البقرة ٢٨٥.

[3] البقرة ٤.

[4] التحريم ١٢

[5] آل عمران ١٨٤.

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥﴾[1] أي جاءهم الرسل بالكتب ولكنهم كذبوا بها.

٦- إخباره سبحانه بأن الكفر بالكتب ضلال بعيد، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾[2] فوصف من كفر بالكتب بأنه "قد ضل" وقد للتحقيق، ثم لم يكتف بهذا حتى أكده بالمصدر فقال: "ضلالاً" ثم لم يكتف بهذا حتى أكد المصدر بوصفه فقال: "بعيداً" وهو دليل مقرر لكون الإيمان بالكتب واجب.

٧- إخباره سبحانه عن جزاء المكذبين بالكتب، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾[3] وفي هذا دلالة على وجوب الإيمان بالكتب.

منزلة الإيمان بالكتب من الدين:

ما تقدم ذكره من وجوه دلالات النصوص على وجوب الإيمان بالكتب دال على تأكده تأكداً شديداً، وعلى لزومه للإيمان لا ينفك عنه بحال، ولذلك كان الإيمان بالكتب من أركان الإيمان، فهو ركن في الدين لا يقوم إلا به، وقد عدّه النبي

---

[1] فاطر ٢٥.

[2] النساء ١٣٦.

[3] غافر ٧٠-٧٢.

صلى الله عليه وسلم في أركان الإيمان، كما في حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي صلى الله عليه وسلم: فأخبرني عن الإيمان؟ قال صلى الله عليه وسلم: "**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**" الحديث[1].

وقد عده الله سبحانه في أركان الإيمان في آيات منها آية البقرة: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[2] وغيرها.

الحكمة من إنزال الكتب:

لا يفعل الله عز وجل إلا لحكمة، هو منزه سبحانه وتعالى عن العبث واللعب، قال عز وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾[3]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾[4]، وقد وصف نفسه بـــ"الحكيم" حين ذكر إنزاله كتبه، قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾[5]، وقال: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ

---

[1] أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١/٣٦ رقم ١.

[2] البقرة ٢٨٥.

[3] المؤمنون ١١٥.

[4] الدخان ٣٨.

[5] الشورى ٣.

حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[1] وقال في مواضع: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[2] وقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾[3] .

وحكمة الله لا يحاط بها ولكنه يتفضل على عباده رحمة منه بهم بإطلاعهم على ما في قدرهم إدراكه من حكمته سبحانه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾[4] ويبقى وراء ذلك مما لا يعلمونه ما لا يحاط به، فإن حكمة الله صفته وقد قال عن نفسه سبحانه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[5] ،

وقد ذكر الله عز وجل بعض الحكم من إنزاله الكتب على أنبيائه إلى خلقه، فمن ذلك:

١- إقامة الحجة على الخلق وقطع المعذرة عنهم في التوحيد، قال سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[6] قوله: "لئلا" نص في التعليل، فهذه من حكم إنزال الكتب، وهو مفهوم وإن لم يُذكر في الآية إنزال الكتب، لأنه لا معنى لإرسال الرسل إلا بما أُرسلوا به من الوحي في الكتب وغيرها، والبشارة والنذارة هي فيما في آيات الكتب وسائر الوحي.

---

[1] الشورى ٥١.

[2] الزمر ١، والجاثية ٢، والأحقاف ٢.

[3] النمل ٦.

[4] البقرة ٢٥٥.

[5] طه ١١٠.

[6] النساء ١٦٥.

٢- رد الناس إلى التوحيد إذا اختلفوا فيه، وحكمه بينهم فيه، كما قال سبحانه: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[١] أي كان الناس أمة واحدة على التوحيد فاختلفوا عليه كما صح عن ابن عباس رضي الله عنه[٢]، فبعث الأنبياء معهم الكتب مشتملة على الحق في شأن التوحيد ليحكم بين الناس بها فتردهم إلى الحق، فهذا حكم بين الناس في الملة والدين إذا اختلفوا فيه.

٣- أن تحكم بين الناس بالعدل فيما بينهم، قال الله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[٣] ففي الكتب الأوامر والنواهي والتشريعات التي فيه العدل والقسط في الديانة والمعاملات والجنايات والمواريث وغير ذلك[٤]، يتحاكم بها الناس لإقامة العدل بينهم.

وهذه الحكم الثلاث متعلقة بالمرسل إليهم الذين أنزلت الكتب إليهم وثمة حكمة متعلقة بالمرسلين الذين أنزلت الكتب عليهم وهي:

٤- تأييد الرسل وإظهار صحة رسالاتهم وصدق نبواتهم، قال سبحانه: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ

---

[١] البقرة ٢١٣.

[٢] انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٥١.

[٣] الحديد ٢٥.

[٤] انظر تفسير ابن سعدي للآية.

وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾[1] وقال: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ﴾[2] ، أي وقع فيهم تكذيب الرسل مع أن معهم ما يؤيد رسالاتهم ويشهد لصحتها وصدق الرسل من البينات والكتب المنزلة عليهم المشتملة على الحق الظاهر النيِّر، فكانت هذه الدلائل مانعة من التكذيب لظهور دلالتها على ما ذكرنا. فهذا دال على أن من الحكمة لإنزال الكتب تأييد الرسل لأن فيها من الحق والعدل ما يمنع تكذيبها والشك فيها.

الواجب على العبد لكتب الله:

الواجب على العباد لكتب الله أخذها بقوة كما قال الله لنبيه يحيى عليه السلام: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾[3] أي بجد واجتهاد ومثابرة على حفظ ألفاظها وفهم معانيها والعمل بأوامرها ونواهيها[4] وتعليمها للناس.

وقد ذكر الله هذا في شأن يحيى عليه السلام ليكون هدىً يقتدي به المؤمنون كما قال سبحانه بعد أن قص عدداً من الأنبياء في سورة الأنعام: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[1] .

---

[1] آل عمران ١٨٤.

[2] فاطر ٢٥.

[3] مريم ١٣.

[4] انظر تفسير ابن سعدي للآية.

ومعنى "خذ الكتاب بقوة" هو معنى النصيحة لكتاب الله الوارد ذكرها في قوله صلى الله عليه وسلم: "**الدين النصيحة** –قالها ثلاثاً–، قالوا: لمن يا رسول الله؟، قال: "**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**"[٢]، فجعل النصيحة هي الدين، وفسر الدين بها، والنصيحة نقيض الغش فهي تخليص الشيء من الشوائب[٣]، فالمراد الإتيان بحقوق هذه المذكورات محققة خالصة من القوادح، وجماع النصيحة لكتب الله في أمرين:

الأول: العمل بها، وله أربعة حقوق، الائتمار بأوامرها، والانزجار عن زواجرها، والتأدب بآدابها، والدعوة إليها وتعليمها الناس.

الثاني: تعظيمها، وله حقوق: منها: الخشوع ومنه الخضوع والبكاء عند تلاوتها أو سماعها، قال الله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾[٤] فهذا هو هدي الأنبياء والمجتبين إذا تليت آيات الله خروا سجداً وبكياً تعظيماً لها، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[٥]

---

[١] الأنعام ٩٠.

[٢] أخرجه مسلم ١/٧٤ رقم ٥٥.

[٣] انظر لسان العرب ٢/٦١٥.

[٤] مريم ٥٨.

[٥] الإسراء ١٠٧-١٠٩.

فهذا شأن أهل العلم، امتدحهم الله بتعظيمهم كتابه بالخضوع والخشوع عند تلاوته.

وامتدح الله النجاشي ومن معه من المؤمنين[1] بقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[2].

وقد أمر الله بالإنصات عند سماع القرآن فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾[3] والإنصات يوجب أن تُقبِل بجميعك على الشيء مستيقظ القلب مجتمع الجوارح، وهذا من تعظيم كتب الله.

ومن تعظيم كتب الله: الطهارة الحسية والمعنوية لها، أما الحسية فبالوضوء عند مسها، كما قال سبحانه: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[4] وهذا أصل في لمس كتب الله التي جمع فيها كلامه ووحيه المنزل، وأما المعنوية فبتطهير القلب عن الانشغال بغيرها عند تلاوتها، ولذلك أمر الله بالإنصات عند سماعها كما تقدم.

ومن تعظيم كتب الله، توقيرها واحترامها وعدم امتهانها، ولذلك **نهى** النبي صلى الله عليه وسلم أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو[5] خشية أن يمتهن من أحد منهم. وقد روى كبار التابعين أنه كان يقال: عظموا المصاحف[6]. وكانوا يكرهون كتابة المصاحف في الشيء الصغير، ورووا عن الصحابة رضي الله عنهم

---

[1] انظر زاد المسير ٢/٤٠٨.

[2] المائدة ٨٣.

[3] الأعراف ٢٠٤.

[4] الواقعة ٨٩.

[5] متفق عليه، البخاري مع الفتح ٦/١٣٣ رقم ٢٩٩٠، ومسلم ٣/١٤٩٠ رقم ١٨٦٩.

[6] انظر المصاحف لابن أبي داود ١٣٥.

نهيهم عن ذلك[١]، ورووا أنه كان يكره أن يقال: مصيحف[٢]، وكره جماعة منهم أن يقال للسورة من القرآن: قصيرة أو خفيفة[٣]، لأن الله يقول: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[٤]، حتى قد كرهوا تطييب المصحف بالمسك ونحوه[٥] كي لا يتلطخ بأثره، وكرهوا أن يُكتب في المصحف غير القرآن من كتابة الفواتح والعدد والتحزيب ونحو ذلك لئلا يختلط القرآن بغيره وليكون المصحف مجرداً لكلام الله فحسب[٦].

ونهوا أن يوضع كتاب الله في غير موضعه حتى نهى بعضهم عن وضعه على الأرض، ورأى عمر بن عبد العزيز ابناً له يكتب من القرآن على حائط فضربه[٧]. فضربه[٧]. كل هذا ونحوه تعظيماً لكتاب الله.

وفي الجملة، فتعظيم كتب الله من النصيحة لها وهو من حقوقها على العبد، وفي الكتاب والسنة مثلان لتعظيم المخلوقات لكلام الله توجب على العبد التفكر فيهما، ففي الكتاب قال الله: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا

---

[١] المصاحف ١٣٦.

[٢] المصاحف ١٥٢.

[٣] المصاحف ١٥٣.

[٤] المزمل ٥.

[٥] المصاحف ١٥٢.

[٦] المصاحف ١٣٧.

[٧] المصاحف ١٨٩.

مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [1].

وفي السنة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وعنده فرس مربوط بشنطنين، فتغشته سحابة فجعلت تدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال: "**تلك السكينة تنزلت للقرآن**"[2].

صفة الإيمان بالكتب الواجب على العبد:

القدر الذي تحصل به الركنية الواجب على كل فرد من آحاد المؤمنين هو أن يؤمن إيماناً مجملاً بأن الله أنزل كتباً على أنبيائه فيها مراده من عباده هي وحيه الذي تكلم به وأوحاه إلى رسله، وأنه يجب الإيمان بما ورد في شأنها في كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم: "القرآن" على الوجه الذي ورد به، إجمالاً فيما أجمله، وتفصيلاً فيما فصله، وأن يؤمن بأن الإيمان بـــ"القرآن" خاصة يجب على التفصيل باعتقاد عقائده والتزام شرعته عملاً بأوامره وانزجاراً عن نواهيه وتأدباً بآدابه.

هذا القدر المجمل هو الذي يحصل به أصل الواجب وتستوفى به الركينة، ثم المؤمنون يتفاوتون بعد ذلك في استكمال الواجب وتحقيق تمامه، فكل من علم شيئاً من تفاصيل ذلك وجب عليه الإيمان به وزاد به إيماناً على الذي لم يعلمه، فمفردات الإيمان المجمل هي مورد التفاوت.

---

[1] الحشر ٢١.

[2] متفق عليه، البخاري مع الفتح ٦/٣٦١٤، ومسلم ١/٥٤٧ رقم ٧٩٥.

والإيمان المجمل بالقرآن من غير إيمان بتفاصيله والتزام بها لا يتحقق به الإيمان الواجب، وإلا كان من آمن بالقرآن من أهل الكتاب مع دعواه اختصاصه بالعرب دونهم مؤمناً، وليس كذلك. أمر الله نبيه أن يقول: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[1] ، وقال سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾[2] .

وكذا الذين يسمون أنفسهم بالقرآنيين ثم تركوا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته، وزعموا أنهم إنما يعملون بما ورد في القرآن وحسب، ليس هذا منهم إيماناً، لأن من الإيمان المفصل بالقرآن الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بغير القرآن في سنته القولية والفعلية، وفي القرآن : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ ﴾[3]، وفيه: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[4] ، وفيه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥ ﴾[5] .

ونستعرض فيما يلي بعض مفردات الإيمان التي وردت مجملة في النصوص فيكون الإيمان الواجب بها على وجه الإجمال الذي وردت به:

---

[1] الأنعام ١٩.

[2] الفرقان ١.

[3] الحشر ٧.

[4] النساء ٨٠.

[5] النساء ٦٥.

الإيمان بكتب الله جملة من غير تفريق بينها:

ورد الأمر بالإيمان بكتب الله أمراً بالإيمان بها جميعاً من غير تفريق، وهذه من وجوه الإجمال في الإيمان بالكتب، قال الله عز وجل: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾[1] أي من غير تفريق بينها في الإيمان لأن هذا ورد بعد الأمر بعدم التفرق في الدين الذي شرع في رسالات الرسل، وبعد ذكر تفرق أهل الكتاب فيه بإيمان ببعض الكتب دون البعض، المذكورين في الآيتين قبل هذه الآية.

وقال سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾[2] ولا معنى للتفريق بين الرسل إلا التفريق بين ما أوتوه من رسالات الله وكتبه، كما قال سبحانه: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾[3].

والتفريق بين كتب الله في الإيمان كفر ينقض أصل الإيمان.

والتفريق بين كتب الله في الإيمان له في الجملة صورتان:

الأولى: الإيمان ببعض الكتب والكفر ببعضها:

---

[1] الشورى ١٥.

[2] البقرة ٢٨٥.

[3] البقرة ١٣٦.

ومثال هذه الصورة ما حكاه الله عن اليهود من إيمانهم بالتوراة وكفرهم بالقرآن، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾[1] فسجل الله عليهم فعل الكفر بهذا التفريق في الإيمان، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾[2] فسجل سبحانه على المفرقين بين الرسل ورسالاتهم وكتبهم فعل الكفر فقال "يكفرون" ووصفه فقال "أولئك هم الكافرون" وحقق تسجيل وصفهم بالكفر بقوله: "حقاً" ثم توعدهم سبحانه.

وإنما كان الكفر ببعض كتب الله مع الإيمان ببعضها كفراً بها جميعاً وناقضاً لأصل الإيمان لثلاثة أوجه:

١- أن جميع كتب الله مصدرها واحد، فهي منزلة من عند الله فلا وجه للتفريق بينها، فمن كفر بواحد منها كان هذا كفراً بالجنس الذي اجتمعت عليه، وعاد على جميع الكتب بالكفر. وهذا الوجه ينبه عليه قول الله: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ ﴾[3] وقوله:

---

[1] البقرة ٩١.

[2] النساء ١٥٠-١٥١.

[3] الشورى ١٥.

﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[1] .

٢- أن جميع كتب الله اشتملت على أصول اعتقادية وعملية واحدة، وهي جميعها على ملة واحدة، فمن كفر بواحد منها يكون هذا كفراً بالملة التي اشتمل عليها ذات الكتاب الذي ادعى الإيمان به. وكتب الله يصدق بعضها بعضاً فالكفر بواحد منها كفر بالباقي، وينبه إلى هذا الوجه قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ ﴾[2] فقوله: "وهو الحق مصدقاً لما معهم" تعليل لكفرهم.

٣- أن كل كتاب من كتب الله أمر بالإيمان بجميع كتب الله. فإن الإيمان بالكتب من أصول الإيمان التي جاءت بها الملة على لسان كل رسول، فمن كفر بواحد من كتب الله يكون قد كفر بما أمر به في الكتاب الذي ادعى الإيمان به.

هذا ويمكن أن يقال أن التفريق بين كتب الله في الإيمان يرد من جهتين، من جهة التنزيل، وهذا ككفر اليهود بالقرآن مع إيمانهم بالتوراة فإنهم أنكروا أن يكون القرآن منزلاً أصلاً من عند الله، فهو كفر بأصل الإنزال. ومن جهة التأويل، وهذا ككفر النصارى الذين أقروا بالقرآن كتاباً منزلاً ولكنهم زعموا أنه خاص بالعرب ولا يجب

---

[1] البقرة ١٣٦.

[2] البقرة ٩١.

عليهم اتباعه وهم مكتفون بكتابهم، فهؤلاء أثبتوا أصل الإنزال وكفروا من جهة التأويل.

الثانية: الإيمان ببعض الكتاب الواحد والكفر ببعضه:

ومثال هذه الصورة فعل اليهود الذي ذكره الله في قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[1] والشاهد في الآية قوله: "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض" أي تؤمنون ببعض كتابكم وتكفرون ببعضه، وبين وجه هذا الكفر من فعلهم وهو المذكور في الآية، وهو أنه كان حلفاء الخزرج من اليهود يقاتلون مع الخزرج حلفاء الأوس من اليهود أنفسهم في الحرب الدائرة بين الخزرج والأوس، فيقاتل اليهودي اليهودي، فيقتل اليهود بعضهم بعضاً ويخرجون بعضهم بعضاً من ديارهم، وهذا محرم عليهم في كتابهم، ثم إذا أسر يهودي من الفريقين كليهما جمعوا له الفدية يفدونه جميعاً لأن هذا واجب عليهم فعملوا بهذا وتركوا ذاك[2].

---

[1] البقرة ٨٤-٨٥.

[2] انظر زاد المسير ١/١١٠-١١١.

ومن صور الإيمان بالكتاب الواحد والكفر ببعضه، ما عليه الذين يسمون أنفسهم بـــ"القرآنيين" الذين يقولون: القرآن يكفينا، ويتركون العمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء قد كفروا ببعض القرآن مع دعواهم الإيمان به وهو كفرهم بقول الله في القرآن: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[1] وقد ورد الخبر عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال « ﷺ » : «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[2] ويلحق بهؤلاء كل من رد خبر الآحاد من المبتدعة.

وهذه الجملة من الإيمان تنبني عليها فوائد منها: تقرير المذهب الراجح في أن شرع من قبلنا الوارد في شرعنا من غير نسخ شرع لنا، لأن الإيمان واجب بكل ما جاء في كتب الأنبياء السابقين وشرائعهم.

اتفاق كتب الله في الملة والأصول وتنوع شرائعها:

هذه جملة من جمل الإيمان بكتب الله، أنها جميعها جاءت بملة وأصول اعتقادية وأصول عملية وأصول آداب واحدة ولكن تنوعت الشرائع والمناهج، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

---

[1] الحشر ٧.

[2] أخرجه الترمذي ٤/٢٠٠ رقم ٤٦٠٥ ، وأبو داود ٥/٣٦ رقم ٢٦٦٣ وابن ماجه ١/٦ رقم ١٣ ، وأحمد ٣٩/٣٠٢ رقم ٢٣٨٧٦ .

﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾[1] فإذا ضُمَّ قوله سبحانه في الآية "مصدقاً لما بين يديه" إلى قوله: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً" تقرر ما ذكرناه من اتفاق كتب الله في الأصول وتنوع شرائع ومناهج تطبيق تلك الأصول.

وقال سبحانه: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ﴾[2] فأخبر أنه شرع لأمة محمد صلى الله عليه وسلم الوصايا التي وصى بها سائر الأنبياء لا جميع ما أوحاه الله لكل واحد منهم وشرع جميع ما أوحاه لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا معنى الفرق بين لفظي "وصى" المقرونة بأسماء الأنبياء المذكورين و"أوحينا" المقرونة باسم النبي صلى الله عليه وسلم.

والوصايا هي الملة والأصول العملية وأصول الآداب ويدل لذلك كتاب الله، ففي الملة قال الله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾[3] وقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾[4] وفي الأصول العملية قال عيسى عليه

---

[1] المائدة ٤٨.

[2] الشورى ١٣.

[3] البقرة ١٣٠-١٣٢.

[4] النساء ١٣١.

السلام: ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾[1] فهذه في الصلاة والزكاة من جنس الأصول العملية،

وفي أصول الآداب قال الله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾[2] فهذه في بر الوالدين من جنس الآداب، وقد سردت آيات سورة الأنعام[3] التي في أولها: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ عشر وصايا اشتملت على أصول اعتقادية وأصول عملية وأصول آداب، وقد ختمت كل آية من تلك الآيات بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "**الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**"[4] والمقصود بالأمهات في الحديث: الشرائع والمناهج[5]، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل لاتفاق شرائع الأنبياء في الملة وأصولها وتنوع مناهجها بالإخوة لأب، أبوهم واحد وأمهاتهم شتى.

والشرائع التي وقع فيها التنوع هي الأحكام التي يدخلها النسخ، فالصلاة مثلاً أصل عملي اتفقت عليه رسالات الرسل لا يدخله النسخ، ولكن تنوعت شرائعها في صفاتها وأعدادها وأذكارها وشروطها ونحو ذلك، وهكذا في باقي الأصول وشرائعها.

---

[1] مريم ٣١.

[2] الأحقاف ١٥.

[3] انظر الآيات ١٥١-١٥٣.

[4] أخرجه البخاري، الصحيح مع الفتح ٦/٤٧٨ رقم ٣٤٤٣، ومسلم ١٨٣٧ رقم ٢٣٦٥.

[5] انظر فتح الباري ٦/٤٨٩.

والحكمة في تنوع الشرائع مع اتفاق الملة هي: "توحيد الخلق على توحيد الخالق" وذلك بأن تؤخذ كل أمة بالتشريعات التي توافق طبائع أهلها وزمانهم ليكون من كل أمة أتم حال يؤدى بها توحيد الله عز وجل، ولذلك تتفاوت الشرائع بين تشديد وتيسير بحسب أحوال الناس وأزمنتهم، فلما كان اليهود مثلاً أهل مكر وبهتان وتحايل ومخادعة وجرأة على ارتكاب المحظورات وقتل الأنبياء وتحريف كلم الله عن مواضعه ناسب أن تكون الشريعة المفروضة عليهم شديدة حتى وصفها الله بالإصر والأغلال في قوله: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] أي بنسخها بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما كان القرآن آخر كتب الله لا كتاب بعده لأن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا نبي بعده، وكانت شريعته عامة في الخلق إلى قيام الساعة فقد ضبط الله شرعته لتوافق أحوال الخلق كلهم على اختلاف أحوالهم وأزمنتهم إلى قيام الساعة، فيستغنوا بها في كل حال وزمن عن الحاجة لكتاب آخر.

كتب الله مترلة منه على رسله:

هذه الجملة من الإيمان أصل عظيم في الإيمان بكتب الله فهي لبُّه وحقيقته، لا يثبت الإيمان بالكتب إلا بها، وأصل ورود باطل كفر أو بدعة في هذا الباب فمن جهة القدح في هذه الجملة من الإيمان، ولذلك قرر الله هذا الأصل في كتابه أعظم تقرير فكثر ذكره في كتاب الله، وورد على وجوه متعددة من الذكر، وأساليب متنوعة من البيان،

- فتارة تفتتح السورة من القرآن بتقرير هذا الأصل:

---

[1] الأعراف ١٥٧.

أ- ثم يكون هذا الافتتاح حيناً: بالإخبار العام، كما في افتتاح سورة آل عمران:

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ ﴾ وأول سورة الزمر: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ وبه افتتحت سور السجدة ويس وغافر وفصلت والجاثية والأحقاف، أن الكتاب تنزيله سبحانه.

ب- وحيناً يكون افتتاح السورة بثناء الله على نفسه لتنزيله الكتاب والامتنان على خلقه بذلك، ففي مفتتح سورة الكهف: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ وفي مفتتح سورة الفرقان: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾.

- وتارة يكون هذا التقرير في أثناء السورة، وهو أكثر وروده، وهو على وجوه:

أ- فأحياناً يكون بالإخبار العام، كقوله سبحانه: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾[1] ، وقال

[1] الحديد ٢٥.

سبحانه: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[1].

ب- وأحياناً يقرره سبحانه في سياق الأمر بالإيمان، كقوله: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾[2] وقوله: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَمَا .. ﴾[3].

ج- وأحياناً يقرره في سياق ذكر صفات المؤمنين التي استحقوا لها اسم الإيمان وحكمه وأن منها إيمانهم بإنزال الكتب، كقوله: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[4] وقوله في صفة المتقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[5] وقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾[6].

وفي هذه الوجوه والآيات وغيرها كثير في كتاب الله يعبِّر سبحانه عن إيتائه الكتب بالفعل نزل وتصرفاته، فتارة بصيغة "نزَّلنا" كما في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ

---

[1] البقرة ٢١٣.

[2] الشورى ١٥.

[3] البقرة ١٣٦.

[4] البقرة ٢٨٥.

[5] البقرة ٤.

[6] آل عمران ١٩٩.

نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾[1] ، وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾[2] وتارة بصيغة "نزِّل" كما في قوله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] ، وتارة بصيغة "يتزِّل" كما في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾[4] وتارة بصيغة "نُزِّل" كقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[5] ، وتارة بصيغة "تُنزَّل" كقوله: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾[6] ، وتارة بصيغة "يُنزَّل" كقوله: ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾[7] وتارة بصيغة "أَنْزَل" كقوله: ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[8] وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[9] وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[10] ، وقوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ

---

[1] الحجر ٩.

[2] الإسراء ١٠٦.

[3] الإسراء ٨٢.

[4] الحديد ٩.

[5] النحل ٤٤.

[6] التوبة ٦٤.

[7] المائدة ١٠١.

[8] البقرة ٢١٣.

[9] العنكبوت ٤٧.

[10] يوسف ٢.

أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ ﴾[1] ، وتارة بصيغة "أُنْزِل" كقوله: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ ... ﴾[2] وقوله: ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾[3] ، وتارة بصيغة "تنزيل" كقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾[4] وتارة بصيغة "منزَّل" في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ ﴾[5] .

وفي جميع مواضع ذكر تنزيل الكتب من الله أضيف الإنزال إليه سبحانه على وجهين:

١- إسناد الفعل إلى الله فهو فاعله.

٢- إسناد ابتداء الفعل إلى الله فهو منه.

والتعبير بالإنزال وإسناده إلى الله يدل على أصلين في الحق يقمعان نوعين من الباطل:

الأول: أن كتب الله ليست من كلام الرسل أنشؤوه من أنفسهم، وكذا لم يتلقوه من أحد ممن حولهم من البشر. فإن النزول والإنزال لا يكون إلا من علو إلى سفل، لا يُعقل إلا كذلك، فإذا كانت كتب الله منزلة عليهم فهي أولاً: من جهة منفكة ليست من كلام أنفسهم، ثم هي من ذات في العلو ليست ممن حولهم في

---

[1] النساء ١٦٦.

[2] آل عمران ٨٤.

[3] آل عمران ٦٥.

[4] الشعراء ١٩٢.

[5] الأنعام ١١٤.

الأرض. وهذا يبطل قول الكفار ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] وقولهم: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ ﴾[2] الذي حكاه الله عنهم.

الثاني: أن كتب الله هي كلامه الذي هو صفته منه بدأ، فهي غير مخلوقة ولكنها كلام الله، وهذا هو معنى إسناد الفعل إلى الله بأنه فاعله،، فالفعل صفة الفاعل، وهو معنى إسناد الفعل إلى الله بأنه منه، لأنه ابتدأ منه وخرج منه سبحانه، فكُتب الله كلامه منه بدأت، تكلم بها أولاً سبحانه ثم تناقلت كلامه سبحانه الألسن وحفظته الصدور والسطور وهو حيث تصرّف كلام الله لأنه منه بدأ، فهو غير مخلوق، فإن قيل: كيف يكون الكتاب كلامه الذي هو صفته وقد كتب باليد المخلوقة على الورق المخلوق بالحبر المخلوق، وحفظته الصدور المخلوقة ورددته الألسن المخلوقة، فالجواب: يكون كلام الله لأنه منه بدأ، فالكلام ينسب إلى من تكلم به أولاً حيث تصرف، فإنك إذا تلوت حديثاً من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوت نفسك ولسان نفسك لا يقول أحد : إن هذا كلامك ، وإن كان بأداء نفسك، بل يقول: هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعلوم أن صوتك المسموع منه هذا الكلام ليس هو صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا لسانك وحركات فمك بالحروف والكلم هي لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وحركات فمه الشريف، ولكنه كلام رسول الله لأنه هو الذي تكلم به أولاً وخرج منه صلى الله عليه وسلم في ابتداء الأمر، هذا وكلامه صلى الله عليه وسلم مخلوق ككلامنا، فكذلك كلام الله إذا تلوته أو حفظته أو كتبته هو كلام الله وليس كلام التالي والكاتب، وكلامه الذي نشأ منه سبحانه هو صفته غير مخلوق، فلا يكون نشأ مخلوقاً ولا من مخلوق.

---

[1] المدثر ٢٥.

[2] النحل ١٠٣.

ويُجلي الأمر بيان أن الكلام ينسب نسبتين: نسبة إلى المتكلم به أولاً، فيكون كلامه الذي هو صفته. ونسبة إلى المبلغ، فيكون تبليغه، فالأولى: نسبة إنشاء، والثانية: نسبة تبليغ.

وهذا يبطل قول أهل البدع إن القرآن مخلوق.

نوعا اختلاف الخلق في تنزيل الكتب:

ذكرنا فيما تقدم أن الله عظم في كتابه تقرير كون كتبه منزلة منه. وأكده بالترديد في الذكر والتنويع في العبارة بما يجلي شأنه ويمنع الشبهة فيه، وهذا من فضله على عباده في بيان ما يختلفون فيه وفصل الحكم فيه، فإن الخلق قد اختلفوا في تنزيل كتابه سبحانه اختلافاً انقسم به الحق والباطل، والسنة والبدعة، وتضاد المؤمن والكافر، والسني والبدعي.

ويمكن تصنيف اختلاف الخلق في تنزيل الكتاب إلى نوعين[1] :

الأول: اختلاف في جنس التنزيل، وهو بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون يؤمنون بأصل التنزيل ويثبتون كتاب الله منزلاً منه سبحانه على رسوله فهو كلام الله والرسول مبلِّغ، أما الكفار فأنكروا أصل التنزيل وأبطلوه وزعموا أن الكتاب قول الرسول أو تعلمه من بشر.

الثاني: اختلاف في صفة التنزيل، وهو واقع بين أهل السنة وبين أهل البدع والهوى من فلاسفة ومتكلمة، فأهل السنة يقولون: كتاب الله كلامه، خرج منه بحرف وصوت، وسمعه منه جبريل، وبلغه جبريل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وسمعه الرسول « ﷺ » من جبريل عليه السلام، وبلغه الرسول لأمته سمعه منه أصحابه وتلقته الأمة منهم. أما أهل البدع من أهل الكلام فقد اتفقوا على كلمة واحدة هي أن القرآن مخلوق، إما خلقه الله في جبريل أو في محمد أو في

[1] انظر الفتاوى ١٢/١٣ – ١٤ و ١١٩ – ١٢١ .

جسم آخر غيرهما، وأما الفلاسفة فجعلوه فيضاً فاض على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من العقل الفعّال أو غيره. وكلا القولين كفر وضلال.

عدد كتب الله:

الكلام في عدد كتب الله لا أصل له صحيح، فهو غير معلوم، وقد اشتهر أن عدة كتب الله مائة وأربع كتب، روى البيهقي في سننه أن الربيع بن صبيح روى عن الحسن البصري قال: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب[١]. ومستند من قال ذلك حديث أبي ذر الطويل الذي فيه: قلت يا رسول الله كم كتاباً أنزل الله؟ قال: **"مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيث خمسين صحيفة، وأنزل على أخنوخ (وفي رواية: إدريس) ثلاثون صحيفة، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن"**[٢]، وهو حديث انفرد به إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه عن جده[٣]، وقد قال الذهبي: "إبراهيم بن هشام أحد المتروكين الذين مشّاهم ابن حبان فلم يصب"[٤] وقد قال الهيثمي في هذا الحديث: "فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قال أبو حاتم وغيره: كذاب"[٥] فليس في الحديث حجة مع هذا السند.

---

[١] السنن الكبرى ١٨٨/٩.

[٢] أخرجه ابن حبان، الإحسان ٢٨٧/١-٢٨٩. وعزاه في الدر المنثور ٣٤١/٦ إلى عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر.

[٣] انظر ميزان الاعتدال ٧٢/١.

[٤] ميزان الاعتدال ٣٧٨/٤.

[٥] موارد الظمآن ص٥٣.

وعن وهب بن منبه قال: "قرأت ثلاثين كتاباً نزلت على ثلاثين نبياً"[١]، وقال: "لقد قرأت اثنين وتسعين كتاباً كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا قليل"[٢].

ولا يعرف من كتب الله معرفة ثابتة صحيحة إلا أربع كتب ذكرها الله في القرآن الكريم، والقرآن هو خامسها، وهي: توراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، وصحف إبراهيم –عليهم السلام.

وفيما يلي تعريف بكل منها:

التوراة:

هذا اسم الكتاب المترل من الله على موسى عليه السلام، وهو اسم عبراني، أصله "طُورا" بمعنى "الهدى"[٣]، وبمعنى "الشريعة" أو "الناموس"[٤]. فهو على هذا لفظ أعجمي لا يدخله اشتقاق عربي ولا يوزن على أوزان الصرف العربية.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه اسم عربي، واختلفوا في اشتقاقه ووزنه الصرفي، ففي اشتقاقه قولان:

١- أنه مشتق من: وَرِيَ الزند، يَرِي: إذا ظهر منه النار[٥]، فكأن التوراة ضياء من الضلال.

٢- أنه مشتق من: وَرَّى في كلامه، إذا عرَّض[١]، ويكون ذلك لأن في التوراة رموزاً كثيرة وتلويحات جليلة.

---

[١] الطبقات الكبرى ٥/٥٤٣.

[٢] الطبقات ٥/٥٤٣ والحلية ٤/٢٤.

[٣] انظر التحرير والتنوير ٣/١٤٨.

[٤] تفسير المنار ٣/١٥٥.

[٥] انظر البحر المحيط ٢/٣٧١ وإملاء ما من به الرحمن ١/٧٢.

وفي وزنه ثلاثة أقوال:

١- أنه على زنة "فَوْعَلَة"، فأصلها "وَوْرَيَة" فأبدلت الواو الأولى تاءً، كما فعلوه في "تُقاة" و"تُجاه" في "وُجاه" و"وُقاة" من الوجه والوقاية[٢]، وأبدلت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. قاله البصريون[٣].

٢- أنه على زنة "تَفْعَلة" بفتح العين، وقلبت الياء ألفاً والتاء زائدة، من: وريت بك زنادي، قاله الكوفيون[٤].

٣- أنه على زنة "تَفْعِلة" بكسر العين، فأبدلت الكسرة فتحة وقلبت ألفاً، وفعل ذلك تخفيفاً، كما قالوا في "توصية": "توصاة"، قاله الفراء[٥]. واعترضه البصريون بأن هذا البناء قليل، وبأنه يلزم منه زيادة التاء أولاً، وهي لا تزاد كذلك إلا في مواضع ليس هذا منها[٦].

وإنما قيل إن اسم "التوراة" عربي لأمرين:

الأول: دخول "أل" التعريف عليه، وهي لا تدخل على الأسماء الأعجمية.

---

[١] انظر البحر المحيط ٢/٣٧١.

[٢] استدرك العكبري في إملاء ما من به الرحمن ١/٧٢ بأن التاء في "تقاة" أبدلت عن الواو لانضمامها ضماً لازماً مثل "نجاة" وليس كذلك هنا، ولكنها أبدلت في التوراة عن الواو كما قالوا: "تَوْلَج" وأصلها "وَوْلج"، والتولج كناس الظبي أو الوحش الذي يلج فيه.

[٣] انظر البحر المحيط ٢/٣٧١، والمفردات ٧٦، والكشف عن وجوه القراءات السبع ١/١٨٣، وإملاء ما من به الرحمن ١/٧٢.

[٤] انظر المراجع السابقة.

[٥] البحر المحيط ٢/٣٧١، وإملاء ما من به الرحمن ١/٧٢.

[٦] إملاء ما من به الرحمن ١ / ٧٢ .

وقد أجيب عنه بأنه لا مانع من دخولها على المعرب، كما ألزموا بعض الأسماء الأعجمية الألف واللام علامة على التعريف، كما ورد في "الاسكندرية" فهو لا يستعمل بدونها مع الاتفاق على أعجميته[١].

الثاني: أنها قُرِئت في المتواتر بإمالة الألف، وعلة إمالتها: الدلالة على الأصل، لتقريبها إلى أصلها وهو الياء[٢]، فدل هذا على أنها مشتقة متصرف فيها تصرف الألفاظ العربية.

وذكر ابن تيمية رحمه الله[٣] أن لفظ "التوراة" قد يراد به الكتاب المعين: "توراة موسى" وقد يراد به جنس الكتب التي يقر بها أهل الكتاب، فيدخل في ذلك: الزبور ونبوة أشعيا وسائر النبوات غير الإنجيل، وهي قد حرفت وبدلت.

وهذا الذي ذكره ابن تيمية رحمه الله هو في إطلاق أهل الكتاب، أما القرآن والسنة فليس مراداً بلفظ "التوراة" فيهما إلا كتاب موسى عليه السلام[٤].

وقد تكرر ذكر "التوراة" في القرآن كثيراً إما باسمه أو بالحديث عنه دون ذكر اسمه، وقد ورد اسمه بلفظه ثمان عشرة مرة في القرآن. وقد سماه الله: "فرقاناً"

---

[١] انظر التحرير والتنوير ١٤٨/٣، وقال ابن عاشور: "هذا جواب غير صحيح لأن الاسكندرية وزن عربي، إذ هو نسب إلى اسكندر، فالوجه في الجواب أنه إنما ألزم التعريف لأنه معرب عن اسم بمعنى الوصف، اسمٍ علمٍ، فلما عربوه ألزموه اللام لذلك" لأن عدم التعريف تدخل على الأوصاف والنكرات لتصير أعلاماً بالغلبة مثل: العقبة.

[٢] الكشف عن وجوه القراءات السبع ١٨٣/١.

[٣] في الجواب الصحيح ٢٨١/٣، وانظر تفسير المنار ١٥٥/٣.

[٤] انظر تفسير المنار ١٥٦/٣.

في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[1] وكتب الله كلها فرقان لأنها مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل.

وتسمى فقرات التوراة آيات، كما في حديث ابن عمر، أن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**ما تجدون في شأن الرجم؟**" وفي سياقه: فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم[2].

وهذا كشأن فقرات كتب الله جميعاً تسمى "آيات"، قال الله بعد ذكر الأنبياء من ذرية آدم وإبراهيم: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾[3].

صفة نزول التوراة: كان الله قد كتب التوراة بيده سبحانه قبل خلق آدم بأربعين عاماً كما في حديث تحاج آدم وموسى عليهما السلام فقد ورد في سياقه: "**فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً**"[4]، ثم أعطاه الله لموسى، وقد أُثِر عن طائفة من التابعين –كما يقول ابن تيمية– أن الله ناول موسى

---

[1] الأنبياء ٤٨.

[2] متفق عليه، البخاري مع الفتح ٦/٦٣١ رقم ٣٦٣٥، مسلم ٣/١٣٢٦ رقم ١٦٩٩.

[3] مريم ٥٨.

[4] مسلم ٤/٢٠٤٣، ح

التوراة من يده إلى يده، وقال ابن تيمية: "وهو كذلك عند أهل الكتاب لكن لا أعلم غير هذا اللفظ مأثوراً عن النبي صلى الله عليه وسلم"(١).

وقت نزول التوراة: جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث واثلة بن الأسقع أنه قال: "**أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان**"(٢).

هل بين التوراة والألواح والصحف فرق: ذكر الله في القرآن "الألواح التي آتاها موسى عليه السلام في سورة الأعراف، وذكر سبحانه "الصحف" التي آتاها موسى عليه السلام في سورتي النجم والأعلى.

وفي الروايات عن أهل العلم قول بأن موسى عليه السلام أعطي الألواح قبل التوراة(٣)، وعلى هذا فالألواح غير التوراة.

وفيها قول بأن التوراة كتبت في الألواح فهي هي، وليست الألواح شيئاً غير التوراة لأن التوراة فيها(٤).

وهذا القول الثاني هو الذي عليه الجمهور الغالب، ويستأنس لترجيحه بقوله سبحانه:

---

(١) الفتاوى ٥٣٣/١٢.

(٢) أخرجه أحمد ١٩١/٢٨ رقم ١٦٩٨٤، حسنه الألباني في الصحيحة ١٠٤/٤ رقم ١٥٧٥.

(٣) مروي عن مجاهد.

(٤) مروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس وعكرمة وعطاء، انظر الدر المنثور ١١٤/٣ و ١٢٠-١٢١.

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[1] وذلك للمناسبة بين قوله "كتبنا" وبين ما ثبت في السنة من أن الله كتب التوراة بيده، وكذا لمناسبة عموم قوله في وصف الألواح أن فيها من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء لأن تكون التوراة داخلة في هذا العموم، أو أن تكون هي محتوى الألواح، ففي كلام أهل العلم وصف التوراة بأن فيها شيء كثير وطول حتى صعب على أهلها حفظها وأنه لم يكن يحفظها إلا عدة قليلة جداً من أنبياء بني إسرائيل، اثنان أو ثلاثة.

وأما الصحف فعلى حديث أبي ذر المذكور قريباً تكون الصحف غير التوراة، لأن فيه: "**وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف**" وقد تقدم أن الحديث لا يحتج به.

وظاهر قوله سبحانه في وصف الألواح أن فيها من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، يرجح أن تكون الصحائف من الألواح ليست شيئاً آخر، إذ ماذا عساها أن تحتوي إن كانت غير الألواح مع اشتمال الألواح لكل شيء؟! والله أعلم.

وقوله سبحانه "كل شيء" في وصف المكتوب في الألواح يشمل كل ما يحتاج إليه لاستقامة الدين والدنيا، فيشمل الاعتقاد والأمر والنهي والحدود والأحكام والآداب والحكم والعبر ونحو ذلك[2].

---

[1] الأعراف ١٤٥.

[2] انظر زاد المسير ٣/٢٥٨-٢٥٩.

هذا، وإذا كانت التوراة في الألواح، ولا فرق بينهما، فثمة إشكالٌ يرد على زمن نزول التوراة على موسى عليه السلام الذي صح عن النبي صلى الله عليه وسلم –كما تقدم– أنه كان لست مضت من رمضان.

فيكون هو زمن نزول الألواح، والألواح أنزلت بعد تمام الأربعين ليلة التي واعد الله موسى بعد إنجائه وقومه من فرعون وقومه، فإن الله قال: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ .. ﴾، قال: ﴿ ... فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ .. ﴾[1] فكان إيتاء موسى الألواح في تمام هذه الأربعين في المواعدة.

وهذه النجاة كانت في العاشر من محرم كما في حديث صيام يوم عاشوراء الثابت في الصحيح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء قال: "**ما هذا؟**" قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، فقال صلى الله عليه وسلم: "**فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه**"[2]، وفي رواية: "**هذا يوم عظيم أنجى**

---

[1] الأعراف ١٤٠-١٤٥.

[2] أخرجه البخاري، الصحيح مع الفتح ٤/٤٤، رقم ٢٠٠٤.

الله فيه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه"[1] فالنبي صلى الله عليه وسلم أقر اليهود على اعتبار العاشر من محرم هو يوم نجاة موسى عليه السلام ولم يكذبهم بهم بل خصه بالصيام موافقة لشرعة موسى عليه السلام.

ووجه الاستشكال: أن رمضان بعيد عن المحرم، فبينهما أكثر من أربعين ليلة، فكيف يكون زمن نزول الألواح غير زمن نزول التوراة وهما واحد؟!

والجواب باحتمال أحد وجهين:

الأول: عدم منع بُعد المدة على هذا النحو، لأنه ليس في سياق القصة في الآيات ما يجزم له بوقوع المواعدة عقب النجاة مباشرة قريباً منها وما فيها إلا وقوع المواعدة بعد النجاة مطلقاً.

الثاني: أن يكون يوم العاشر من محرم وافق عندما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة اليوم الذي يصومه اليهود موافقة وليس هو هو، لأن اليهود كانوا يحسبون لصيامهم بحساب الشمس. قال ابن القيم: "صوم أهل الكتاب إنما هو بحساب سير الشمس"[2] ونقل نحوه ابن حجر عن كتاب الآثار القديمة للبيروني[3]. ولكن يمنع هذا الاحتمال أنه لو صح لكان صيام عاشوراء في كثير من السنين غير موافق ليوم نجاة موسى عليه السلام فلا يكون صيامه محققاً لمقصود الشارع صلى الله عليه وسلم في قوله: "**نحن أحق بموسى**".

ويشكل كذلك ما روي عن أئمة التفسير كمجاهد ومسروق وابن جريج ومروي عن ابن عباس[4] أن الثلاثين ليلة من المواعدة هي ثلاثين ذي القعدة،

---

[1] هي عند مسلم ٢/٧٩٦ رقم ١١٣٠.

[2] زاد المعاد ٢/٧٠.

[3] فتح الباري ٤/٢٤٨.

[4] انظر الدر المنثور ٣/١١٤-١١٥.

والعشر التي تم بها الميقات هي عشر ذي الحجة، فيكون إنزال التوراة على هذا القول وقع يوم النحر. والجواب: أن هذا مما ينقل عن أهل الكتاب للعلم به لا للاحتجاج فلا يعارض به ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، بل يُردّ بما في الحديث.

ولكن إذا كانت التوراة غير الألواح، فلا وجه لهذه الإشكالات. والله أعلم.

محتويات التوراة:

أجمل الله محتويات التوراة في قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾[1] ففيها الهدى والنور والحكم في الذين هادوا، فيها الملة والعقائد وأدلة الحق وأحكام التشريع.، وقد تقدم أن كتب الله مشتملة على الأصول الاعتقادية والعملية والسلوكية. وقد ذكر الله في كتابه بعض مفردات محتوياتها:

فمن مفردات الاعتقاد فيها:

- الإخبار عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته ونسخ شريعتهم بشريعته، قال الله:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

[1] الأعراف ١٥٧.

ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1].

- والإخبار عن صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ووصفهم وضرب المثل لهم، قال الله:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾[2].

- والوعد بالجنة لمن يقاتل ويقتل في سبيل الله، قال الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾[3].

- الإخبار بفلاح من تزكى بطاعة ربه وطلب الآخرة، قال الله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[4].

---

[1] الأعراف ١٥٧.

[2] الفتح ٢٩.

[3] التوبة ١١١.

[4] الأعلى ١٤-١٩.

- ومفردات الاعتقاد الواردة في قوله سبحانه: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ مِنْ.. ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾[1].

ومن مفردات التشريعات فيها:

- القصاص وأحكامه، قال الله: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ ﴾[2] فهذه في الحدود، وقال في الأجور والوزر: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾[3].

---

[1] النجم ٣٦-٥٤.

[2] المائدة ٤٥.

[3] المائدة ٣٢.

- ومن أحكام الأطعمة، قال الله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ﴾[1].

الزبور:

هو كتاب داود عليه السلام، وورد ذكره في القرآن مرتين: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾[2]. وهو بفتح الزاي، وقرأه حمزة بضمها[3]. فالفتح على أنه كتاب واحد سمي به، والضم على أنه جمع زبور، كأنه في التقدير: وآتينا داود كتباً وصحفاً مزبورة، يقال: زبرت الكتاب: جمعته. والفتح أولى لصحة معناه ولأن عليه الجماعة[4].

زمن نزوله: تقدم في حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: "**وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان**".

محتوياته: لم يتضمن الزبور تشريعاً وأحكاماً، فقد كان دواد عليه السلام عاملاً بالتوراة يحكم بها في الذين هادوا، فكتابه تابع للتوراة، وإنما تضمن كما قال قتادة والربيع بن أنس وغيرهما أذكاراً وتسابيح وتمجيد وثناء على الله وأدعية، وحكماً ومواعظ[5]، وقد روى بعض أئمة العلم كوهب بن منبه شيئاً مما ورد فيها[1]. ولعل الحكمة في ذلك طلب ترقيق قلوب بني إسرائيل.

---

[1] الأنعام ١٤٦.

[2] النساء ١٦٣، والإسراء ٥٥.

[3] انظر زاد المسير ٢/٣٥٥.

[4] الكشف عن وجوه القراءات ١/٤٠٣.

[5] انظر الدر المنثور ٤/١٨٨.

وقد ثبت في الصحيح: "**لقد خفف على داود القرآن فكان يأمر خيله لتسرج فيقرأ الزبور**"[٢]. فقيل لهذا الحديث إن الزبور يسمى قرآناً، ولعل الصواب أن لفظ "القرآن" في الحديث مصدر قرأ بمعنى القراءة وليس تسمية للكتاب.

الإنجيل:

هذا اسم الكتاب المنزل على نبي الله ورسوله عيسى عليه السلام، وقد تكرر ذكره في القرآن أحد عشر مرة.

والإنجيل لفظ سرياني مكون من كلمتين معناه: البشرى الحسنة. وقيل: رومي معناه: الخبر الطيب. وقيل يوناني معناه: اللفظ الصحيح، أو البشارة، أو التعليم الجديد[٣]. وقيل: عبري[٤]. وقيل هو عربي وفي اشتقاقه ثلاثة أقوال[٥] :

١- أنه مشتق من النجْل، وهو خروج الشيء من أصله وبروزه، ومنه قيل لولد الرجل: نجله، ويقال: نجلت البئر إذا نزّ ماؤها، وسمي الإنجيل به: إما لأنه تستخرج منه العلوم والحكم، أو لأنه مستخرج من اللوح المحفوظ أو من التوراة.

٢- أنه مشتق من النَجَل وهو السعة، ومنه: عين نجلاء أي واسعة الشق، وسمي الإنجيل به لأنه تضمن سعة لم تكن لبني إسرائيل.

٣- أنه مشتق من التناجل وهو التنازع، سمي به لتنازع الناس فيه.

---

[١] انظر الدر المنثور ٤/١٨٨-١٨٩.

[٢] أخرجه البخاري، الصحيح مع الفتح ٦/٤٥٣ رقم ٣٤١٧.

[٣] التحرير والتنوير ٣/١٤٩ وتفسير المنار ٣/١٥٨.

[٤] البحر المحيط ٢/٣٧١.

[٥] انظر زاد المسير ١/٣٤٩ وإملاء ما من به الرحمن ١/٧٢، والبحر المحيط ٢/٣٧١.

ولفظ الإنجيل يطلق في كلام الله على الكتاب الذي آتاه الله نبيه عيسى وأنزله عليه، ولكنه "يطلق عند النصارى على أربعة كتب تعرف بالأناجيل الأربعة، وعلى ما يسمونه العهد الجديد وهو هذه الكتب الأربعة مع كتاب أعمال الرسل (أي الحواريين) ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب ورؤيا يوحنا. أي على المجموع، فلا يطلق على شيء مما عدا الكتب الأربعة بالانفراد. والأناجيل الأربعة عبارة عن كتب وجيزة في سيرة المسيح عليه السلام وشيء من تاريخه وتعليمه، ولهذا سميت أناجيل، وليس لهذه الكتب سند متصل عند أهلها وهم مختلفون في تاريخ كتابتها على أقوال كثيرة"[1].

وقت نزوله: تقدم في حديث واثلة بن الأسقع قوله صلى الله عليه وسلم: "**وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان**".

محتوياته:

الإنجيل تابع للتوارة، ولكنه تضمن نسخ شيء منها كما في الآية: ﴿ **وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ** ﴾[2]، وغالب الإنجيل حكم وأمثال ومواعظ، وقد وردت فيه البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم وصفته والخبر بنسخ شريعته لشريعة بني إسرائيل، وفيه ذكر الصحابة وضرب المثل لهم، والوعد للمجاهدين، كما تقد ذكره في الكلام على التوراة.

وهذه الكتب الثلاثة معروفة في الناس، موجود في الكنائس نسخها المتداولة في اليهود والنصارى، ولكنها محرفة كما سيأتي بيانه.

---

[1] تفسير المنار ١٥٨/٣.

[2] آل عمران ٥٠.

صحف إبراهيم عليه السلام:

ذكر الله صحف إبراهيم في موضعين من كتابه، في النجم: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] ، وفي الأعلى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[2] .

وقد أنزلت على إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان كما في حديث واثلة المتقدم.

وقد دل كتاب الله على أن صحف إبراهيم عليه السلام لم تكن معروفة عند العرب قبل الإسلام مع انتسابهم لإبراهيم عليه السلام ودعواهم أنهم على ملته، قال سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾[3] .

فهذه الآيات في مخاطبة المشركين وبيان إقامة الحجة عليهم بالقرآن وأنه أنزل إليهم حتى لا يعتذروا عن شركهم بالله بأن الكتاب إنما أنزل على الطائفتين اليهود والنصارى، وأنهم لم يترل عليهم كتاب. فهذا يدل على أنهم ما كانوا يعرفون إلا كتابي اليهود والنصارى، وهذا يدل على أن صحف إبراهيم لم تكن معهودة معروفة لديهم، فلعلها لم تكن موجودة، فتكون قد بادت، إلا أن عدم معرفة العرب لها لا يمنع معرفة غيرهم، ووجودها عند غيرهم، على أنه لا ريب

---

[1] الآيتين ٣٦-٣٧.

[2] الآيتين ١٨-١٩.

[3] الأنعام ١٥٥-١٥٧.

في دخول التحريف فيها لو كانت موجودة معروفة عند بعض الخلق. وقد قال النووي: "فأما المتمسكون بكتب سائر الأنبياء الأولين كصحف شيث وإدريس وإبراهيم وزبور داود صلوات الله عليه وسلامه عليهم فلا تحل مناكحتهم على الصحيح"[1] قاله في أصناف الكفرة الذين لا تحل مناكحتهم، وكأنه كان يُعهد في عصره من يتمسك بهذه الكتب ومنها صحف إبراهيم، فكأنها كانت موجودة ولكن بأيدي كفرة مع تمسكهم بها، فهذا شاهد على تحريفها لو كانت موجودة، وقد حرفت التوراة والإنجيل والعهد بهما أقرب من العهد بصحف إبراهيم. وقد ذكر ابن النديم عن رجل من موالي هارون الرشيد جمع كتاباً قال: إنه جمعه من كتاب الصابئة المنتسبون إلى إبراهيم عليه السلام وحملوا عنه الصحف[2].

تحريف التوراة والإنجيل:

لقد حرف أهل الكتاب كتاب الله الذي استحفظهم عليه، ولم تبق التوراة والإنجيل على هيئتها التي نزلت بها على النبيين الكريمين، وهذا التحريف أثبته الله في كتابه، وقد كان اعتداء أهل الكتاب على كتابهم على درجات مذكورة في القرآن:

- فهم قد نسوا حظاً من كتابهم، قال الله في بني إسرائيل: ﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ ﴾[3]

وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ

---

[1] روضة الطالبين ٧/١٣٥.

[2] الفهرست ٣٢.

[3] المائدة ١٣.

فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾[1] وهذا النسيان شامل لنسيان العمل بالترك ونسيان العلم بأن نسوه وضاع عنهم[2].

- ثم ما لم ينسوه فقد كتموه، قال الله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾[3] وقال سبحانه فيهم: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[4].
- ثم ما لم يكتموه حرفوه عن مواضعه، قال الله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[5].

وهذا التحريف وقع منهم في التلاوة باللسان كما قال الله: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾[6] وقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ

---

[1] المائدة ١٤.

[2] انظر تفسير السعدي للآية.

[3] الأنعام ٩١.

[4] البقرة ١٤٦.

[5] المائدة ١٣.

[6] النساء ٤٦.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1] ، ووقع التحريف في الكتابة أيضاً، قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2] .

وتحريف أهل الكتاب كتابهم وقع منهم في ألفاظه وفي معانيه، ودليل ذلك ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**قيل لبني إسرائيل {ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم} فبدلوا، فدخلوا على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة**"[3].

وقد حرف أهل الكتاب كتابهم مع علمٍ وقصد، فهم تعمدوا التحريف، قال الله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[4] ، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[5] وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ

---

[1] آل عمران ٧٨.

[2] البقرة ٧٩.

[3] أخرجه البخاري، الصحيح مع الفتح ٣٠٤/٨ حديث رقم ٤٦٤١.

[4] البقرة ٧٥.

[5] آل عمران ٧٨.

ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ ﴾[1] ، وقد وقع منهم زيادة أدخلوها على الكتاب مع ما نقصوه منه[2].

اختلاف أهل العلم في صورة تحريف أهل الكتاب كتابهم:

لقد أجمع أهل العلم على وقوع التحريف في كتب أهل الكتاب، ولكن اختلفوا في صورة وقوعه على قولين:

- فذهب بعضهم إلى القول بأن التحريف وقع في المعاني والتأويل لا في اللفظ والتنزيل، وهذا قال به طائفة من أئمة الحديث والفقه والكلام كما يقول ابن القيم[3]. وقد قال به البخاري في صحيحه فقد قال: "يحرفون: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل، ولكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله"[4] وذكر ابن حجر أنه نسب إلى وهب بن منبه بل ولابن عباس أيضاً[5]. وقد ذُكر لهذا القول عدد من الحجج[6]، الحجج[6]، منها:

---

[1] البقرة ٧٩.

[2] انظر الفصل ٢/٢-٦٩، والجواب الصحيح ٢/١٨-٢٨، وإغاثة اللهفان ١/٣٤٥ وما بعدها.

[3] إغاثة اللهفان ٢/٣٥١.

[4] الصحيح مع الفتح ١٣/٥٢٢.

[5] فتح الباري ١٣/٥٢٥.

[6] انظر إغاثة اللهفان ١/٣٥٣ وما بعدها، والبداية والنهاية ٢/١٤٧-١٤٨، وفتح الباري ١٣/٥٢٣-٥٢٤.

أ- قوله سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾[1] فالله قضى أن لا مبدل لكلماته، وخبر الله لا ينتقض، ولكن يجاب عنه أن الآية هنا في القرآن الموحى لمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد تكفل الله بحفظه فلا يقع فيه تبديل قط، أما التوراة والإنجيل فاستحفظ عليها أهلها و لم يتكفل الله بحفظها فبدلوا وإن قيل : العبرة بعموم قوله «لا مبدل لكلمات الله» فيكون الجواب : أن هذا أمر في صورة الخبر ، والمراد لا تبدلوا كلمات الله . والله أعلم .

ب- واحتج له بآية: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ ﴾[2] ولو حرفت ألفاظها ما أمرهم أن يحكموا به ويخبر أنه ما أنزل الله فيه.

ج- وكذا بآية: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[3] فلو كانت بدلت ألفاظها ما قال هذا.

د- وكذا بآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[4]

---

[1] الكهف ٢٧.

[2] المائدة ٤٧.

[3] آل عمران ٩٣.

[1] فأحال إلى المكتوب فيها فلا تكون ألفاظها حرفت مع هذا.

ونظائر هذا، والجواب عنه بأن هذه الآيات فيما لم تتبدل ألفاظه كنبوة النبي صلى الله عليه وسلم ووجوب متابعته، وكثبوت النسخ في كتابهم ونحوه مما لم يدخله التحريف، وهو لا يمنع أن غيره حرف وبدل.

ولهذا القول ذهب بعض الفقهاء إلى القول بعدم جواز لمس الجنب التوارة وإنزال حكم الطهارة للقرآن على التوراة الموجودة[2].

- وذهب جمهور أهل العلم إلى أن التحريف وقع في الألفاظ والمعاني جميعاً كما ثبتت بهذا الأدلة من كتاب الله التي تقدم ذكر طرف منها.

والموجود في التوراة والإنجيل الآن مما يكذبه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا يكون مما أنزل الله قط[3].

ولكن هذا التحريف لم يقع فيها جميعها بل بقي فيها مما أنزل الله على هيئته التي أنزلت لم يحرف وهذا كالمذكور في الآيات التي استدل بها للقول الأول.

وكما في حديث الرجم الذي تقدم وفيه: "فوضع يده على آية الرجم".

وقد نقل بعض المتأخرين قولاً بأنها بدلت وحرفت كلها حتى لم يبق منها شيء مما أنزل الله، وهو مقتضى القول المحكي بجواز الامتهان[4].

الواجب على المسلم في الإيمان بالتوراة والإنجيل:

---

[1] الأعراف ١٥٧.

[2] انظر البداية والنهاية ١٤٩/٢.

[3] انظر الفصل لابن حزم ، ٢/٢ وما بعدها . وإغاثة اللهفان ٣٥٤/٢ وما بعدها ففيهما نماذج للتحريف الواقع.

[4] فتح الباري ٥٢٣/١٣. وانظر فتاوى السبكي ٣٣٩/٢.

الواجب على المسلم الإيمان بالأصول الأولى للكتابين التي أنزلت على النبيين الكريمين على الوجه الذي تقدم ذكره في صفة الإيمان بالكتب، وأن يعتقد أنها لم تبق كما أنزلت بل دخلها التحريف والتبديل، فاختلط ما أنزل فيها من الله مع ما أحدث فيها، وعليه فما دل كتابنا على صحته وصدقه مما فيها فهو مما أنزل الله، وما دل كتابنا على بطلانه وكذبه بدليل من كتابنا فالمنهج فيه ما في حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: {آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم} الآية**"(١).

وهذه الجملة فيها الاحتياط التام لصحة الإيمان، فإن كان ما في كتابهم مما لم يقم دليل في كتابنا على صحته صحيحاً فإن هذه الجملة تقتضي إيماننا به وسلامتنا من تكذيب ما أنزل الله، وإن كان كذباً فإن هذه الجملة تقتضي تكذيبنا له وبراءتنا من الإيمان بكذب لم يتزله الله.

طرق العلم بما في كتب أهل الكتاب وأحكامها:

لا طريق للعلم بما في كتب أهل الكتاب مما لم يرد ذكره عنها في كتابنا وعلى لسان نبينا صلى الله عليه وسلم إلا واحد من ثلاث طرق:

الأول: أن يخبرونا هم به، يبتدؤوننا بذلك، لا بطلب منا، فهذا هو الذي ورد فيه حديث أبي هريرة المذكور وتمامه:

قال أبو هريرة: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: {آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم}**".

فلم يمنع صلى الله عليه وسلم هذه الطريق وعلمنا ما نقوله إذا أخبرونا.

(١) أخرجه البخاري ١٣/٣٣٣ ح ٧٣٦٢.

الثاني: أن نبتدئ نحن بسؤالهم فيخبرونا جواباً لنا، وهذا محرم أصله، فلا يجوز سؤال أهل الكتاب عن شيء، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم النهي عنه، ففي حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني**" وهذا ورد في سياق القصة المشهورة أن عمر رضي الله عنه نسخ كتاباً من التوراة بالعربية جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم[1].

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث، تقرءونه محضاً لم يُشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم"[2] وهذا تشديد في النهي والإنكار.

---

[1] هذا حديث كثرت طرقه وهي كما يقول ابن حجر في الفتح ٥٢٥/١٣: "وهي إن لم يكن فيها ما يحتج به لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلاً"، انظر الحديث في: المسند ٦٤٨/٢٢ رقم ١٤٦٣١ و٣٤٩/٢٣ رقم ١٥١٥٦، ومصنف ابن أبي شيبة ٤٧/٩ رقم ٦٤٧٢، ومصنف عبد الرزاق ١١٣/٦ رقم ١٠١٦٤، وشعب الإيمان ٢٠٠/١ رقم ١٧٧. وقد علقه البخاري في الصحيح فقال في كتاب الاعتصام: "باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء**".

[2] أخرجه البخاري، الصحيح مع الفتح ٣٣٣/١٣ رقم ٧٣٦٣.

وورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا"[١]،

فهذا هو الأصل في هذه الطريق، التحريم، ولكن إذا قامت ضرورة شرعية تدعو إلى ابتدائهم بالسؤال فإن الضرورة تقدر بقدرها، ويجوز عندها ابتداؤهم بالسؤال على القدر الذي يحصل به قضاء الحاجة الشرعية، ومن هذا الباب ورد قوله سبحانه: ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ ﴾[٢] فإن الله بره في أول الآية بقوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ فالسؤال متعلق بصحة الرسالة، وهذه موجودة في التوراة مما أنزل فيها ولم يدخله تحريف[٣]. وغرض السؤال رفع الحرج من صدر النبي صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾[٤] ، هذا مع أن بعض أهل العلم حمل قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ على أن المراد من آمن منهم[٥] فلا يكون سؤالاً لأهل الكتاب بل لمؤمنين كانوا أهل كتاب قبل إيمانهم، ثم إنه قد روي عن جماعة من أئمة العلم والهدى كابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة

---

[١] أخرجه عبد الرزاق ١١٢/٦ رقم ١٠١٦٢ وابن أبي شيبة ٤٨/٩ رقم ٦٤٧٥. وحسنه ابن حجر في الفتح ٣٣٤/١٣.

[٢] يونس ٩٤.

[٣] انظر فتح الباري ٣٣٤/١٣، وتفسير السعدي للآية.

[٤] الأعراف ٢.

[٥] انظر تفسير ابن أبي حاتم ١٩٨٦/٦ رقم ١٠٥٨٤ و١٠٥٨٥.

وغيرهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم يسأل[1]. وإنما هذا لإقرار ارتفاع الشك وإقرار الورود في كتب أهل الكتاب، فهو كقوله: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[2] والأنبياء لا يكون منهم الشرك ولكن هذا لإقرار إحباط العمل بالشرك، ومن باب ابتداء أهل الكتاب بسؤالهم عما في كتابهم مع قيام المقتضى الشرعي قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الرجم المتقدم: "**ما تجدون في ذلك عندكم في التوراة**".

الثالث: قراءة كتبهم والنظر فيها: نقل السبكي عن جماعة من الشافعية في مسألة هل يجوز النظر في التوراة والإنجيل، أنه: لا يحل إمساكها، بل إن كانت على جدار ونحوه غسلت[3]. ونقل ابن مفلح عن الإمام أحمد وعدد من الحنابلة إنكار ذلك حتى قال أحمد في هذا السؤال: هذه مسألة مسلم؟! وغضب رحمه الله[4].

وقد حكى ابن حجر عن الزركشي دعوى الإجماع على أن ذلك محرم، والاستدلال له بحديث قصة عمر رضي الله عنه لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم بيده نسخة من التوراة فغضب، الذي تقدم ذكره. وتعقبه ابن حجر بما نصه: "والذي يظهر أن كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم، والأولى في هذه المسالة التفرقة بين من لم يتمكن ويصر من الراسخين في الإيمان فلا يجوز له النظر في شيء من

---

[1] انظر المرجع السابق رقم ١٠٥٨٣ وتفسير ابن جرير ١١٥/٧-١١٦ والدر المنثور ٣١٧/٣.

[2] الزمر ٦٥.

[3] فتاوى السبكي ٣٣٩/٢، الفروع ١٠٦/٢-١٠٧.

[4] الفروع ٢ / ١٠٦ – ١٠٧

ذلك بخلاف الراسخ فيجوز له ولاسيما عند الاحتياج إلى الرد على المخالف، ويدل على ذلك نقل الأئمة قديماً وحديثاً من التوراة وإلزامهم اليهود بالتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم بما يستخرجونه من كتابهم، ولولا اعتقادهم جواز النظر فيه لما فعلوه وتواردوا عليه، وأما استدلاله للتحريم بما ورد من الغضب ودعواه أنه لو لم يكن معصية ما غضب منه، فهو معترض بأنه قد يغضب من فعل المكروه، ومن فعل ما هو خلاف الأولى إذا صدر ممن لا يليق منه ذلك، كغضبه من تطويل معاذ صلاة الصبح بالقراءة، وقد يغضب ممن يقع منه تقصير في فهم الأمر الواضح مثل الذي سأل عن لقطة الإبل، وقد تقدم في "كتاب العلم": الغضب في الموعظة، ومضى في "كتاب الأدب": ما يجوز من الغضب"[1] وحاصل الأمر أن دعوى الإجماع على التحريم محجوجة بعمل الأئمة.

ثم يلاحظ في هذه المسألة شرطان:

الأول: أن يكون النظر لمصلحة شرعية تقتضيه. فهذا شرط في النظر.

الثاني: أن يكون الناظر راسخاً في العلم في مأمن أن يلتبس عليه باطل هذه الكتب، وهذا شرط في الناظر.

التحديث عن بني إسرائيل:

إذا حصّل المسلم من كتب بني إسرائيل شيئاً مما فيها بأحد الطرق الثلاث المذكورة آنفاً فهل يحدِّث به؟!

والجواب في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**"[2]، ففي الحديث الإذن في التحديث عن بني

---

[1] فتح الباري ١٣/٥٢٥-٥٢٦.

[2] أخرجه البخاري، الصحيح مع الفتح ٦/٤٩٦ ح٣٤٦١.

إسرائيل، ورفع الحرج في ذلك، وقد ذكر ابن حجر أقوالاً في معنى "الحرج" في الحديث[١].

ومن المستقر المعلوم أنه لا يجوز التحديث عنهم بما قام الدليل على كذبه، كما قال الشافعي: "من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجيز التحديث بالكذب"[٢] ويدل له الأدلة العامة في النهي عن الكذب، وإنما يجوز ذكر كذبهم لداعٍ شرعي كبيان ما هم عليه من فساد ونحوه. ثم ما قام الدليل في كتابنا على صحته مما في كتابهم فلا حاجة للتحديث به عنهم، لاستغنائنا بكتابنا، إلا إن دعت ضرورة شرعية لروايته عنهم، كإقامة الحجة عليهم كما في قوله: ﴿ **قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ** ﴾[٣] . فلم يبق إلا ما لم يقم دليل في كتابنا على كذبه أو على صدقه، فهذا هو الذي يظهر أنه موضع الإذن بالتحديث به عنهم، وهو ما كان حكمه أن نقول فيه: "**آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم**" كما في حديث أبي هريرة المتقدم.

وعلى هذا فإن التحديث عنهم إنما يكون لمجرد العلم أو للاعتبار ولا يكون للاحتجاج والاستدلال، ولذا غالب ما يرويه أهل العلم عن بني إسرائيل إنما هو من قبيل تفسير مبهم في كتابنا، أو قصص فيها عظات وحكم، ونحو هذا.

هذا، وللكلام في كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (القرآن) بحث مستقل. والله الموفق لا شريك له.

وكتب / أ.د. محمد بن عبدالرحمن أبوسيف الجهني

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

---

[١] انظر فتح الباري ٦/٤٩٨.

[٢] نقله ابن حجر في الفتح ٦/٤٩٩.

[٣] آل عمران ٩٣.